

المقاومة الثقافية عبر قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري

"سلسلة حكايات هذا الزمان نموذجاً"

Cultural Resistance Through Children's Stories in Abd al-Wahab al-Masiri; A Model from the Series "Tales of This Time" .

أمينة بن خاوة*

تاريخ النشر: 2026/09/18	تاريخ القبول: 2026/01/02	تاريخ الإرسال: 2025/07/08
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يُجسّد مشروع المفكر المصري عبد الوهاب المسيري (1936-2008) عبر التخصصي خطاباً مقاوماً لحرب المتتالية التحديثية الغربية ضد الإنسانية، بما في ذلك كتابته للطفل التي أراد من خلالها خلق حيز إنساني يمارس فيه الأطفال إنسانيتهم، من خلال تعزيز الانتماء الثقافي والهوياتي وإعلاء مفهوم القيمة ضمن تشكيل سردي معاصر؛ لذا مزجت سلسلته القصصية "حكايات هذا الزمان" بين التراث والحداثة، حتى يقدّم للطفل قالباً أسطورياً ينطلق في تخيله من واقعه ما يسمح للطفل بإدراكه، لتشكّل هذه السلسلة سرداً مضاداً للأدبيات الغربية الموجّهة للطفل التي عمّل المسيري على تفسيرها، والكشف عن أنساقها المخبوءة، ومن ثمة إنتاج خطاب أدبي بديل للطفل العربي.

الكلمات المفتاحية: المقاومة الثقافية، قصص الأطفال، التفكيك، السرد المضاد.

Abstract:

The interdisciplinary project of the Egyptian thinker Abdel Wahab El-Messiri (1936-2008) constitutes a discourse resistant to forms of Western hegemony represented in modernity and post modernity, including his writing for children, which aimed to strengthen cultural belonging and elevate the concept of value within a contemporary narrative formation.

*المركز الجامعي مرسلتي عبد الله-تيبازة/ الجزائر benkhaoua.amina@cu-tipaza.dz

Therefore, his story series "Tales of This Time" blended heritage and modernity, to form a narrative that opposed Western literature aimed at children, which El-Messiri worked to interpret and reveal its hidden patterns, and hence produce an alternative literary discourse for the Arab child.

Key words: Cultural resistance, children's stories, deconstruction, counter-narrative.

1. مقدمة:

إننا بالحديث عن أدب الطفل عند المفكر عبد الوهاب المسيري، لا نتحدث عن مشروع في خالص غايته الإمتاع؛ بل إننا إزاء مشروع فكري حضاري يسعى للدفاع عن الإنسان والحفاظ على البراءة في زمن السيولة، إن أدب الطفل عنده جزء لا يتجزأ من مشروعه الكبير؛ المتمثل في تفكيك بنية السرديات الكولونيالية (الصهيونية والغربية)، والسعي لتأسيس حدائث إنسانية بديلة؛ إنه خطاب مقاوم لكل أشكال التفكك والاغتراب والشذوذ والعدمية التي بدت عليها الأدبيات والألعاب الموجهة للطفل والتي اكتسحت ثقافتنا بفعل العولمة، والانهار بالآخر إلى حد تضييع هويتنا السردية بما تحمله من أساطير وبطولات ونماذج إنسانية وزاد لغوي، ذاك أن للخطابات تحيزات؛ أي امتدادها التاريخي والثقافي ومنه أخذ المسيري على عاتقه تفكيك الخطابات الموجهة للأطفال؛ والتفكيك في مفهومه هو استخلاص النموذج المهيمن (النسق) وإنتاج الخطاب الإنساني البديل؛ أي تفكيك الإنتاج الحدائي وما بعد الحدائي الموجه للطفل وإنتاج سرد مضاد مقاوم للمركزية الغربية.

وعليه ما هي الاستراتيجيات المقاومة التي اتبعها المسيري في كتابة سلسلة حكايات هذا الزمان، وكيف استطاع إعادة بعث الرموز التراثية في قالب معاصر؟ وللإجابة على هذه الأسئلة سنعتمد على المنهج الوصفي في تحليل قصص السلسلة ضمن مقاربة ثقافية.

2. الكتابة للطفل عند المسيري: المنطلق والغاية

المقاومة الثقافية عبر قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري "سلسلة حكايات هذا الزمان نموذجاً"

لجأ المسيري لكتابة قصص الأطفال كسرد مضاد لأدبيات الحداثة الداروينية الغارقة في التشاؤم والنزعة المادية، حيث انتزعت عن العالم كل صفات البراءة، وعن الإنسان كل ما يجعله كائناً رباتياً متوازناً؛ إذ يقول في سيرته غير الذاتية غير الموضوعية «يمكن أن أذكر عن نفسي أن البراءة تسحرني كل ما هو بريء يملك على شغاف قلبي، ومازلت أعشق الوجوه البريئة، خاصة التي بها مسحة من الحزن، ومن الموضوعات الأثيرة لدي في دراستي للأدب موضوع الانتقال من البراءة إلى الخبرة ثم العودة إلى البراءة الأولى، ولعل هذا يفسر شغفي بأدب الأطفال. فأدب الأطفال العظيم، رغم عدم خلوه من الصراع ورغم وجود قدر من الشرفية، إلا أنه لا يزال على علاقة بما هو عظيم ونبيل في الإنسان (شأنه في هذا شأن السيرة الهلالية والقصص الخرافية التي أحببتها)، وهو لا يحطم البراءة، ولذا وجدت فيه ملجأ (ويقف هذا على طرف النقيض من الأدب الحداثي وما بعد الحداثي، شأنه شأن النظرية النقدية التي تواقبه، أدب تفكيكي معاد للإنسان، ولذا تتواتر فيه مواضع [كذا] مثل الاغتراب والانتحار والشذوذ)»¹. إن الكتابة للطفل عند المسيري مبنية على رؤية حضارية، وهي لؤلؤة في عقد تباينت صنوف لآلئه (النقد الأدبي، التحليل السياسي، دراسة الصهيونية واليهودية، نظم الشعر) إلا أن خيطها الناظم هو الدفاع عن الإنسان، الإنسان المركّب الذي اختزلته المنظومة التحديثية الغربية في بعدٍ ماديٍّ واحد وجعلته كائناً طبيعياً استهلاكياً، متشوّباً ومكتئباً ومغترباً.

لا تختلف رؤية المسيري المفكر عن المسيري الأديب؛ فقصصه تعبّر عن الأفكار نفسها التي توجد في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية أو التي عبّر عنها في سيرته الذاتية؛ إذ جميعها منبثق عن نموذج معرفي أساسي كامن رافض للموضوعية المتلقية والنصوصية البلهاء والمعلوماتية الفجة والسببية الصلبة، يؤمن بالعقل التوليدي والسببية الفضفاضة والنماذج المفتوحة (النهايات المتغيرة)²، وعليه ليحياه الحيز الطبيعي/ المادي الذي وضع الغرب الإنسان فيه؛ خلق للأطفال حيزاً إنسانياً يُمكنهم من تحقيق إنسانيتهم.

قبل أن يكتب المسيري قصص الأطفال اعتنى بتفسير كل ما تنتجه الحضارة الغربية للأطفال من ألعاب وأدب ومادة إعلامية؛ فقام بتفكيكها كجزء من تفكيكه للمتتالية التحديثية الغربية، والمنهج التفسيري عند المسيري يتجاوز التحليل والتفكيك إلى إعادة التركيب ومن ثم التفسير؛ ففي تفكيك بنية السرديات الكولونيالية الغربية لا يقف عند حدود التفكيك واستخراج النماذج والأنساق الكامنة؛ بل يعيد تركيب تلك المقولات والنماذج جاعلا منها أداة منهجية لتفسير السردية/ الظاهرة.

قدمت هذه الرؤية المسيرية مفهوما جديدا لعملية التفكيك التي لا يجب أن تقف عند حدود الهدم، وإلا أصبحت قراءة عدمية لا هدف لها سوى تقويض بناء النص والقراءات السابقة، وهذا ما رفضه المسيري في الاستراتيجية التفكيكية، فهو يهتم بالتأسيس أكثر من التفكيك؛ حيث يقول «أدركت أنني تركت مرحلة التفكيك بصورة تلقائية وانتقلت إلى مرحلة التركيب، وأنني لم أعد أفكِّك وحسب وإنما بدأت أطرح أسئلة وإشكاليات ومصطلحات ونماذج ومقولات تحليلية جديدة»³. فمشروع المسيري لا يهدف للهدم ولا يقف عند حدود كشف المضمرات، بل هو مشروع تفسيري تأسيسي لما يجب أن يكون عليه الخطاب العربي؛ فأول خطوات المقاومة تبدأ بعملية التفكيك لكشف الأنساق المضمرة والحيل البلاغية والآليات الأسلوبية المعتمدة في خطابات الآخر، ثم الانتقال إلى التفسير حيث قام بالربط بين الظواهر وفَسَّرَها وفق نماذج تحليلية صاغها من أجل مساءلة ومراجعة سرديات ومسلمات راسخة حتى كاد الجزم بدقتها واستحالة وجود أي ثغرة فيها، ثم انتقل إلى توليد خطاب الأنا المتحررة من مقولات الآخر. التي لها خصوصيتها الحضارية وامتدادها الثقافي والهوياتي.

عظفا عما سبق فإن كتابة المسيري للطفل تجسيد لما وصفه بـ "فقه التحجُّز" الذي يعتبر نواة مشروعه الفكري؛ بمعنى أن كل إنتاج مادي أو معنوي خاضع لرؤية منتجه، نابع من تاريخه وثقافته محكوم بالنموذج المهيمن على تلك الثقافة، والحضارة الغربية

المقاومة الثقافية عبر قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري "سلسلة حكايات هذا الزمان نموذجاً"

بحسب المسيري قد هيمن عليها النموذج المادي الذي بدأ بتفكيك الإله في مرحلة الصلابة وانتهى بتفكيك الإنسان والتمركز حول الطبيعة / المادة في مرحلة السيولة؛ حيث غرق العالم في عدمية طاحنة، تلاشت القيم وانتزعت البراءة من كل شيء، واختزل الإنسان في بعده المادي وحاول إحداث قطيعة بين الإنسان وهويته وامتداده التاريخي والاجتماعي والثقافي، لأن الهويات تهدد الأهداف التي ترمي إليها العولة واقتصاديات السوق. التي باتت تنظر للإنسان بما فيه الطفل على أنه مستهلك وكائن جسماني، تعزز غرائزه الشهوانية من خلال مختلف الخطابات الثقافية والوسائط التكنولوجية.

وعليه أصبح النظر للمرأة مثلاً على أنها جسد يلبي غريزة الذكر؛ ومنه فإن دمية باربي لا تخرج عن هذا النطاق؛ فهي «العروس السكسي (ذات الجاذبية الجنسية) الشقراء التي ليس لها من سمات الطفولة شيء. وباربي هذه لها منزل فاخر وملابس كثيرة وبودي فريند boy friend أصدقاء كثيرون، يدورون كلهم في الفضاء المادي الاستهلاكي، الذي يدور فيه الإنسان الأمريكي. وإذا كان الدب teddy bear رمزاً للحضارة الغربية في عصر التحديث ومرحلة التقشف، فباربي هي رمز لهذه الحضارة نفسها في عصر الحداثة وما بعد الحداثة والسيولة الفلسفية، حضارة الهامبورجر والجيبنزوال T-shirt وهي حضارة لا جذور لها. وبرغم أنها نشأت أساساً في الولايات المتحدة، فإنها لا تُعبر عن الهوية الأمريكية أو الغربية وإنما هي تعبير عن رؤية مادية، متطرفة في المادية، تهدف إلى تحطيم الهوية والخصوصية وفي نهاية الأمر الإنسانية المركبة، إذ تجعل من الإنسان كائناً استهلاكياً ودافعه اقتصادية وجنسية مادية ... حينما حدث ذلك عرفت أن هناك مؤامرة ضد أطفال العالم (بما في ذلك أطفال الولايات المتحدة) تهدف إلى تحويلهم إلى شخصيات استهلاكية لا هوية لها، وإلى إفقادهم طفولتهم وبراءتهم»⁴.

وعليه أخذ المسيري على عاتقه مجابهة هذه المؤامرة وهذه الحرب على الأطفال بالتحليل والتفسير والكشف عن المخبوء والتنبؤ بالمستقبل من خلال منهجه " التحليل من خلال

النماذج المعرفية" ثم إنتاج الخطاب الأدبي البديل للطفل العربي، ولأبنائه البيولوجيين الذين نشأوا في قلب الحضارة الأمريكية محاولاً تجنبهم كل ما تنتجه هذه الحضارة من ألعاب وملابس ومادة إعلامية؛ خوفاً عليهم من اقتصاديات السوق فلأجلهم ولأجل كل إنسان أبدع في مجال قصص الأطفال:

كان لزاماً على المسيري أن يملأ الفراغ الذي تركه في حياة ابنه (نور وياسر) بتأليف قصص تنقل للطفل أنساقاً ونماذج معرفية حضارية وأكثر إنسانية نابعة من تراثهم وحضارتهم وبيئتهم الأصلية، فنسج عالماً أسطورياً في سياق معاصر؛ إيماناً منه بأن الذكريات والأساطير المشتركة بين الأزواج والأصدقاء وأفراد الأسرة من شأنها أن توحد العلاقات وتخلق عالماً خاصاً بهم يدركون من خلاله العالم من حولهم، وعليه حرص المسيري على تفعيل مفهوم الهوية والخصوصية⁵. لنكون بذلك أمام سردية مشبعة بروح التراث والهوية القومية والثقافية تسعى إلى خلخلة سردية لا امتداد هوياتي لها؛ إنما تسعى لتحطيم البراءة وتفكيك الإنسان والأسر والمجتمعات، فما هي الاستراتيجيات التي اتبعتها المسيري عبر سلسلة حكايات هذا الزمان لمقاومة أدب الطفولة السائل*؟ وما هي الأبعاد التي ركز عليها في نسج صورة الإنسان/ الإنسان؟

3. استراتيجيات المقاومة الثقافية عبر سلسلة حكايات هذا الزمان

1.3: الكتابة للطفل من الغاية التربوية إلى الغاية الحضارية.

سلسلة "حكايات هذا الزمان" مجموعة قصصية ألفها عبد الوهاب المسيري للأطفال إلى جانب دواوين شعرية أخرى مثل أغنيات للأشياء الجميلة (2003)، تعكس رؤية عميقة مناهضة للمتتالية التحديثية الغربية، ومناقشة قضايا تتعلق بالهوية العربية والصراع الثقافي بين التقاليد والحدثة الذي عبر عنه من خلال مواقف الشخصيات وتفكيرهم، وكيفية تفاعلهم مع المجتمع، صدرت هذه السلسلة عن دار

المقاومة الثقافية عبر قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري "سلسلة حكايات هذا الزمان نموذجاً"

الشروق بالقاهرة بداية التسعينات، بعد أن نشرت الدار موسوعته الشهيرة، رغم أنه شرع في كتابتها في السبعينات بغرض تربوي -كما سبق وأن ذكرنا- وتضم عددا من القصص نذكر منها؛ الأميرة والشاعر 1993، نور والذئب الشهير بالملك 1999، سندريلا وزينب هانم خاتون 1999، ما هي النهاية، رحلة إلى جزيرة الدويشة 2000، معركة كبيرة صغيرة 2000، سر اختفاء الذئب الشهير بالمحتار 2000، قصة خيالية جداً 2001، قصص سريعة جداً 2001 «وإذا كان أدب الأطفال هو أفضل وسيلة لتعريف الأطفال بنواحي الحياة المختلفة، ونقل هذه الخبرة لهم بطريقة شائعة ومحبة إلى نفوسهم- فهذا ما تقدمه لهم حكايات هذا الزمان. وقد جاءت مجموعة القصص هذه لتسد ثغرة في احتياج الطفل العربي إلى أدب يكتب له خصيصاً بدلاً من اضطراره إلى قراءة أدب مستورد يصدر عن رؤية مادية مغالية، أو- على أحسن الفروض- أدب موجه بالضرورة إلى طفل آخر مختلف... تمثل حكايات هذا الزمان نموذجاً لأدب الأطفال الجاد، الذي يحترم عقلية الأطفال، ويحاول التواصل معهم وهي تحقق ذلك من خلال تقديم عالم أسطوري معاصر يتميز بالتركيبية والتكامل»⁶، رصد العلاقات الإنسانية والأخلاقيات والقيم وناقشها بشكل متخيل وجذاب، مما يساعد الأطفال على فهم مختلف جوانب الحياة والمشاعر.

يضم العالم الأسطوري الذي ألفه المسيري لأبنائه خاصة والأطفال عامة خمس شخصيات رئيسية؛ نور (ابنته)، ياسر (ابنه) وانضم لهم في قصص متأخرة نديم (حفيدة)، وتحضر بنسب متفاوتة شخصية الأم، الأب، الجدة، كما أن هناك شخصيتين دائمتي الحضور في القصص هما "الديك حسن" و "الجمال" ظريف" ولهما رمزيتهما ومركزيتهما في عملية السرد المضاد، وهذا ما سنقف عليه في عرضنا لأبرز استراتيجيات المقاومة والأفكار التي قام المسيري بتفكيكها والرد عليها:

2.3 استحضار الهوية الثقافية العربية:

2.3. 1 المقاومة عبر التناسل التراثي:

يؤمن عبد الوهاب المسيري بأن الخطاب إنتاج ثقافي تاريخي له تحيزاته فلا يبتعد بذلك عن رؤى التاريخانية الجديدة، وفي تفكيكه للمادة الموجهة للطفل استخلص أن ما تنتجه الحداثة السائلة مجتث الأصول غير مؤسس على هوية أو تاريخ؛ لكنه نتاج النموذج المادي المهيمن على الحضارة الغربية؛ وعليه أقام قصصه على حكايات وشخصيات عربية تراثية، أعاد صياغتها بأسلوب وفي فضاء معاصر، ليجعل لسرده امتدادا في التراث العربي وبعدا تاريخيا يعزز البعد الهوياتي لدى الطفل المتلقي، تماما كما أن تنشئته الاجتماعية والأسرية تُعتبر ركيزة أساسية في فكره شكلت رؤيته ونموذجه المعرفي؛ فمثلا شخصية "الجمال ظريف" مستمدة من القصص والحكايات التي تعرف عليها في طفولته، فيقول «ظريف جمل غير مدرك لجماليته (إن صح التعبير) تماما مثل جمل المدينة المنورة الذي عرفته في طفولتي والذي سمعت قصته من المسحراتي محمد الأعور. والذي فرّ من الجزار الذي كان يريد ذبحه ولجأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وطلب منه الأمان وأن يحميه من الجزار ففعل، أي أنه فر من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان لعدم إدراكه للفارق بينهما. ولا شك في أن الجمال الذهبي البارك في فاترينة محل مصوغات الجمال المجاور لمحل والدي، في دمنهور، والجمال الكثيرة التي كنت ألقاها في شوارع دمنهور وفي السوق، وجمال المحمل... لا شك في أن كل هذه الجمال استقرت في وجداني ومخيلتي وتركت في أعماق الأثر، ومن خلالها ظهر الجمال ظريف إلى الوجود»⁷. والأمر نفسه ينطبق على الديك الحسن المستمد من قصة شعبية مصرية "الشاطر حسن"، كما قد استحضرت شخصية شهرزاد، وزينب خاتون⁸.

من استراتيجيات المقاومة أيضا التناسل مع القالب السردى التراثي؛ أي البنية الحكائية؛ إذ يتناسل مع أبنية نصوص غائبة على غرار قصة "من غصن إلى غصن ومن زهرة إلى زهرة" التي استلهمت القالب السردى لألف ليلة وليلة؛ فبنيت القصة على فكرة

المقاومة الثقافية عبر قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري "سلسلة حكايات هذا الزمان نموذجاً"

رغبة شهرزاد في ان تسمع حكاية لا تنتهي⁹، كما أن حضور الديك حسن الذي يصيح عند حلول الساعة العاشرة والنص مساء ليأذن بتوقف الحكيم وذهاب الأطفال إلى النوم؛ يستدعي قصة شهرزاد التي تسكت عن نسبة الكلام المباح في وقت متأخر من الليل عندما يصيح الديك إيذاناً بقرب الفجر، وفي هذا إشارة إلى أن تراثنا العربي حبل بالأنواع الأدبية والقوالب التي سعت المركزية الغربية لتهميشها.

2.3. 2 الرمز في القصة: دال يستبطن حضارة

يرى عبد الوهاب المسيري في مشروعه أن العلاقة بين الدال والمدلول غير اعتباطية: فكل دال أو مصطلح يضمّر النماذج التي تهيم على ثقافته، ومن أساليب المقاومة التي اتبعها المسيري؛ تفكيك رموز الحضارة الغربية وصورها المجازية، وقد تضمنت سلسلة حكايات من هذا الزمان رموزاً خمن ثقافة الكاتب المصرية والعربية والإسلامية؛ شخصيات أسطورية، رموز حيوانية؛ على غرار علاء الدين، الشاطر حسن، أما الرمز البارز والذي يتواتر في كل القصص هو "الجمال" الذي سبق وأن أشرنا إلى رمزيته بالنسبة للمسيري، ونركز الحديث عليه لأنه يقع في مواجهة "الدب" تلك الشخصية التي ترافق الطفل الغربي وهو يرمز الحضارة الغربية في مرحلة التحديث؛ بينما لا يحمل للطفل العربي أي قيمة أو دلالة وتلقية لهذا الرمز يغفل عنه قيم حضارة الآخر، ومنه قام المسيري، بتضمين حكيه شخصية الجمل ظريف وجعله أختاً لنور وياسر ونديم، وللجمال دلالتة في المخيلة العربية وهو رمز للشخصية العربية وله ارتباط بالتصورات الأسطورية والدينية القديمة، لذا ارتبط جذر لفظه بمفهومين أساسيين لدى العربي وهما الجمال والصبر¹⁰.

3.3. السرد المضاد: النموذج المركب الفضفاض بديل للنموذج الاختزالي

الغربي

سنرصد في هذا العنصر جملة من الثنائيات التي تتحرك الحكايات ضمنها طرفها الأول يمثل النموذج الغربي وطرفها الثاني هو البديل الذي دعا إليه المسيري؛ إذ تشكل هذه القصص خطاباً بديلاً وليس خطاباً مناقضاً؛ فمقاومته

لنموذج الاختزالي الغربي -الذي اختزل الوجود في المادة- كانت نابغة من رؤية مركبة؛ فرفضه للبشر الذي أفرزته الحضارة الداروينية لم يدفعه لكتابة قصص تدور في عالم خيّر بالمطلق، ورفضه للصراع الدارويني لم يدفعه لتقديم عالم غامر بالسعادة النهائية للأطفال؛ حيث قدمت السلسلة «عالمًا مركبًا فيه الخير وفيه الشر، فيه النظام وفيه الفوضى، فعالم الأطفال هو جزء من عالمنا لا ينفصل عنه. والأطفال ليسوا ملائكة، ولا هم بشر ناقصون، بل هم بشر كاملون يجب أن نعتزف بإنسانيتهم الكاملة، فهذا الاعتراف هو تعبير عن احترامنا للأطفال، وإدراكنا أن الطفل كائن ذكي وقادر على إدراك كل الأمور إن تم نقلها له بأسلوب مناسب. وقد حاولت بعض القصص أن تنقل فكرة الشر الكامن في النفس البشرية، ولكن بطريقة طريفة، حتى يدركه الأطفال ولا يظنون أن العالم بريء للغاية، وفي معظم الأحيان يُهزَم الشر وينتصر الخير (فيجب أن ينشأ الطفل وهو يعرف أن الخير إيجابي وأن الشر سلبي) ولكن الشر برغم هذا له وجوده... كما تؤكد إحدى القصص فكرة الفوضى ووجودها في حياتنا وجاذبيتها... وأنا قد نخرق القانون أحيانًا، ولكن لا بد أن نعود لعالم القانون والنظام»¹¹. حتى لا نغرق في العدمية وتتناهى القيم والمبادئ والقوانين التي تنظم المجتمعات وعلاقات البشر مع بعضهم ومع الطبيعة، ومع الخالق قبل كل شيء.

3.3.1 المعرفة الإنسانية ممكنة التحقق؛ ليست مطلقة ولكنها موجودة:

عبر المسيري من خلال قصصه عن رؤى وأفكار فلسفية، علاقة الكل بالجزء من خلال التركيز على علاقة الفرد بأسرته ومجتمعه، كما تكرر طرحه لفكرة العدمية والافتقار والملل الذي يعيشه الإنسان المعاصر وهذا من إفرازات المنظومة التحديثية الغربية، وهذا يتجسد في قصة معركة كبيرة صغيرة، حيث يلف الشخصيات صمت وكآبة، وعبثية لم يعرف سببها فنور متضايقة لسبب مجهول، وظريف حزين، أرادوا تجاوز هذا الوضع بنشاط هادف، منهم من اقترح رواية قصص، والبعض ارتأى الاستماع إلى الموسيقى، انتهى بهم المطاف على أن يروي كل منهم قصة، لكنهم سرعان ما

المقاومة الثقافية عبر قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري "سلسلة حكايات هذا الزمان نموذجاً"

اختلفوا حول من يبدأ وكل الحلول التي اقترحها الديك حسن لم تلق القبول، ولم يركنوا لأي نظام سنه الديك حسن، هنا شرع الجمل ظريف في سرد قصته دون استئذان فقال «كان هناك ولد كبير يجلس تحت شجرة كبيرة فجاءت بنت كبيرة، وجلست معه تحت الشجرة، وقررا ان يغنيا أغنية طويلة للغاية وقد استمرت الأغنية ثلاث ساعات وعشرين دقيقة وسبع ثوان»¹² اعترضته نور بشدة فما لبثت أن أعادت سرد القصة بتعديل الامتداد الزمني والأبعاد لكي تكون صغيرة وزمن الأغنية سريع كغمضة العين، أما ياسر فقد اهتدى للحجم المتوسط. لم يكمل أحد قصته وبقوا مصرين على أنانيتهم، وعدم الالتزام بأي نظام يقره الديك حسن إلى أن صاح هذا الأخير وأسدل الليل ستاره¹³. وانتهت القصة في أجواء مملة كما بدأت، بلا هدف محقق ولم تهدأ الأرواح الحزينة ولم تتخلص من الملل لأنها قررت أن تكون أنانية، صماء عن الاستماع للآخرين، وهذا شأن المركزية الغربية التي تجعل من نفسها هي مصدر الحقيقة ومصدر الكون حتى انتهى بها المطاف إلى العدمية واللامعنى، وهو شأن العرب الذين اتفقوا على ألا يتفقوا.

يذهب عبد الوهاب المسيري في سلسلته بعيدا في الرد على العدمية ومناقشة مسألة الحقيقة من خلال قصتي (من غصن إلى غصن ومن زهرة إلى زهرة) وقصة (ما هي النهاية) فشهرزاد بطلة القصة التي بحثت عن قصة لاتنتهي وجدت نفسها أمام سرد مفرغ من الفائدة بلا غاية وبلا معنى يمجه السمع وتلفظه الذائقة¹⁴. فامعنى ان يروي الشيخ «كان يا ما كان، ياسعد يا إكرام، إنه كان هناك قصر جميل جميل، في مدينه قديمة قديمة، به حديقة خضراء خضراء، فيها أزهار حمراء حمراء، تحوم في سماءها الطيور عاليا عاليا، وتنتقل من غصن إلى غصن، ومن زهرة إلى زهرة، من غصن إلى زهرة ومن زهرة إلى غصن...»¹⁵ ويستمر الشيخ في تكرار الجمل إلى أن تدرك الأميرة بأن لكل

قصة ولكل شيء نهاية؛ إذا فالمعرفة الإنسانية ممكنة التحقق عند المسيري، ولكنها ليست مطلقة ولا يقينية .

يسلم المسيري بضرورة وجود مركز في الكون، وأن لكل شيء بداية ونهاية ومنطلق، وأن الحاضر لا يبنى إلا على الماضي وهذا مخالف للفلسفات ما بعد حداثية العدمية، لذلك في قصصه ينطلق في نسج الخيال من الواقع، يربط ويبني الحاضر على الماضي، كما يبرز امتداد هذا الأخير لواقعنا وحاضرنا؛ وعليه «إن استهلال الحكايات انطلاقاً من الواقع عبر مشهد يكاد يكون متكرراً إنما يشير إلى الرغبة الجارفة لدى المسيري في شد المتلقي إلى الأرض، وتوكيد أهمية الوعي بنقطتي البدء والنهاية.. إذ يخلق أساطير ذات طبيعة خاصة تتطلب من المتلقي الطفل ألا يستغرق في الخيال هارباً من الواقع. إنها رؤية قد تجلت في إبداع أدب الأطفال: الخيال ذو أهمية قصوى، لكن علينا ألا نهرب من الواقع»¹⁶.

3.3. 2 الإنسان/ الإنسان في مواجهة الإنسان الطبيعي

تطرقنا من بداية هذه الورقة إلى محورية فكرة الإنسان/ الإنسان في فكر عبد الوهاب المسيري وقد نقلت السلسلة صورة الإنسان في تركيبته وأبعاده المختلفة (وتظهر تركيبية العلاقة بين الإنسان والطبيعة في حكايات هذا الزمان. فالعلاقة بين الإنسان والطبيعة في الأميرة والشاعر مثلاً تختلف عن تلك التي في نور والذئب الشهير بالملك أو التي في احتفال حديقة الحيوان، أو التي في بقية القصص. ولكن تكامل أشكال العلاقات يؤدي إلى الوصول إلى صورة تقريبية لطبيعة هذه العلاقة. ولتوضيح ذلك؛ فغالبا ما يستخدم المسيري أسلوب المفارقة paradox. وفي هذه الحالة تنتج المفارقة عن امتزاج عالم تسيطر عليه الطبيعة بعالم يسيطر عليه الإنسان).¹⁷ فالأساطير والحكايات التراثية جاءت من زمن كانت الطبيعة تسيطر على الإنسان؛ الأمر الذي جعله يحورها لتتلاءم مع عالم أصبح فيه الإنسان مسيطراً على الطبيعة.

المقاومة الثقافية عبر قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري "سلسلة حكايات هذا الزمان نموذجاً"

من الأبعاد التي ركزت القصص على تجسيدها؛ البعد الأسري من خلال حضور الأب والام والجدة التي تعتبر مصدر أمان في المجتمعات التراحمية، وفي هذا رد على المجتمع التعاقدي حيث تلاشت الروابط الأسرية وهو ما يتماشى مع صورة الإنسان الجسماني الاستهلاكي الذي أفرزته المتتالية التحديثية الغربية، أيضاً البعد الاجتماعي من خلال صور التعاون بين الشخصيات لمواجهة الشر على غرار قصة نور والذئب الشهير بالمكان، وقصة نور والذئب الشهير بالمختار

3.3. 3 التراكم المعرفي والموضوعية المتلقية/ العقل التوليدي الاجتهادي.

حرص المسيري في سرده أن يخلق عالماً مركباً، تتداخل فيه الأصوات، ويندمج فيها النص الغائب بنصه مع النص الحاضر ليتجاوز الماضي الحاضر ما يسمح للطفل بالاستخلاص والاستنتاج، ومن القصص من تترك نهايتها مفتوحة ليعمل الطفل عقله في استخلاص النهاية، ويجعله يعمل عقله وخياله إلى أبعد الحدود؛ إذ «إن تشجيع الخيال هو تشجيع للعقل الإنساني على أن يفكر ويبدع. فالإنسان الذي يعيش في عالم الحقائق المادية الواقعية وحسب، يعيش في عالم صلب يميز الوجدان والشعور ويجعل الإنسان شخصية متمزعة رجعية تدور في إطار ما هو قائم وموجود بالفعل بدلاً من أن يحاول تجاوزه وتغييره وتبديله»¹⁸.

وقد نقد التقليد الأعمى والموضوعية المتلقية في حكاية "نور والذئب الشهير بالمكان" «الذي سقط في التراكم المعلوماتي دون تحليل أو تفسير أو إدراك لما يطرأ على الواقع من تغيرات؛ حيث أنه بقي حبيس الماضي والحكاية التقليدية لليلى ذات الرداء الأحمر... لأن "حكايات هذا الزمان" تحاول أن تعلم الأطفال كيف تولد القصة وتتطور وتشكل، وأنواع القصص المختلفة، فهي لا تكتفي بأن تعطيه قصة، أي ثمرة الفكر، وإنما طريقة القص (أي طريقة حكاية القصة) التي تؤدي إلى الثمرة. والطفل بهذه الطريقة يحقق قدراً كبيراً من الاستقلال عن القصة وعمن يقصها عليه. كما يتعلم حرية الإرادة ويدرك أن الواقع يمكن تغييره»¹⁹. لذلك نجده يمنح الشخصيات حرية

نسج النهايات ومقاطعة السارد والاحتجاج والاستفسار وتغيير مسار السرد؛ إيماننا منه بقدرة الإنسان على التحكم في الأحداث وتغيير الواقع، كما نجده يركز على عنصر المفاجأة وخرق أفق الانتظار، ليكون بذلك الطفل مساهما في بناء القصة وليس مجرد مستمع سلبي، وهذا يقودنا إلى موضوع آخر تناوله المسيري بالتفكيك والنقد؛ إذ توجه بالنقد للعقل العربي في تعامله مع الخطاب الغربي/ الصهيوني.

3.3. تفكيك خطابات الأنا (الهزيمة، التبعية، الآخر الذي لا يقهر).

لم يكتف المسيري بمقاومة خطابات الآخر؛ بل ركز على نقد الخطاب العربي فإن المسيري لم يعد سرد الأساطير والحكايات القديمة والتراثية كما هي، بل أعاد صياغتها بأسلوب قصصي معاصر، ووضع الشخصيات في عالم الطفل الذي يعرفه، فأبدل العربة والهودج بالدراجة والأوتوبيس، كما يتجلى في قصة سندريلا وزينب هانم خاتون مثلا، أو ليلي ذات الرداء الأحمر، كما أنه قام بتفكيك العديد من الصور النمطية كتلك الصورة المنسوجة عن الذئب، بأنه مكار، وهذا يتجلى من عنوان قصة نور والذئب الشهير بالمكار، فبمجرد تعلم الأطفال الدرس من قصة ليلي ذات الرداء الأحمر وإيمانهم بقوتهم على التغلب على الذئب؛ استطاعوا فعلا التغلب عليه بفعل تعاونهم فنور(ليلي في القصة التقليدية) كانت وحيدة، أما في القصة الجديدة هي محاطة بإخوتها، وقد استقلت الدراجة والأوتوبيس لتصل لبيت الجدة قبل الذئب حتى تعد له مايليق به من كمين جراء احتقاره، أما الذئب فقد وقع في المكيدة وتقرزم أمام نور/ ليلي التي أصبحت تبدو ضخمة، لأنه ارتكن إلى التراكم المعرفي والموضوعية المتلقية، ولم يلتفت لتطور العالم من حوله، وأن ليلي لا يمكن أن تعبر الغابة راجلة في زمن الدراجة²⁰.

وإن ربطنا هذه القصة بواقعنا العربي؛ فإن المسيري يحث العرب على تجاوز خطاب التبعية والتوقف عن تكريس خطاب الهزيمة للأجيال، فهم قادرون على الانتصار من خلال تعلم دروس الماضي وإعادة بلورتها وفق السياق المعاصر، وإعمال العقل التوليدي

المقاومة الثقافية عبر قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري "سلسلة حكايات هذا الزمان نموذجاً"

والاجتهادي، فالعدو الذي لا يُهزم يمكن أن يُقهر بالتعاون، والإيمان بقدرات الأنا، عدم التسليم بخطابات وسرديات الآخر، وهذه الرسالة قد تلقفتها أيدي المقاومة الفلسطينية التي أثبتت إلا أن تكون كبيرة قوية جبارة، تسلحت بالإيمان والعلم -فهي رمز الإنسانية في تركيبيتها كما دعا إليها المسيري- فكسرت أسطورة الجيش الذي لا يُقهر في السابع من أكتوبر 2023، لكن الإيمان بالذات وتجاوز خطاب الهزيمة كان ينقصه التعاون، ومآزرة الأمة كما فعل إخوة نور/ ليلى ، فماذا لو تحقق ذلك؟

وعليه فإن المسيري بقصصه هاته لم يقاوم ثقافياً فقط وإنما أعد جيلاً يقاوم في الميدان، تماماً كما قد هيأ الاستعمار قديماً لوجوده عبر الخطاب.

4. خاتمة:

إن الكتابة للطفل لقيت اهتماماً واسعاً عند المسيري، لأن الطفل هو اللبنة الأساسية لبناء مجتمع الغد؛ مجتمع تطلع المسيري لأن يكون متجاوزاً لخطاب التبعية غير منمهر بالآخر، معتز بهويته وانتمائه، غير منجرف في نهر السيولة والعدمية، أراد المسيري للشباب العربي ألا يبدأ من الصفر فهيأ له سبل الانعتاق والتحرر من سرديات الآخر ونماذجه المادية عبر نسج قصص تنمي خياله، وتعزز لديه مقدرة التجاوز، واستطاعة النصر.

إن أدب الطفل عند المسيري مؤسس على رؤية حضارية يحكمها نموذج إنساني مركب فضفاض، عمل من خلاله على ربط الحاضر بالماضي لتعبيد طريق النصر المستقبلية؛ فاحتفى بالهوية العربية واستحضر من تراثه شخصيات ورموز ترمز للبراءة والأصالة وتعكس أبعاد الإنسان الروحية والمادية.

كان المسيري مبدعاً في تناصه مع التراث فيستحضر الشخصيات والرموز ويضعها في سياق معاصر يسمح للطفل بإدراكها، فوقوفه في وجه الحداثة الداروينية، ليس وقوفاً

في وجه التقدم والعصرنة؛ إنما يسعى لإقناع العقل العربي على إنتاج خطابه الخاص بناء على تحيزاته وانطلاقاً من تاريخه الإنساني، فهل أصابت سهام المسيري التي ألقاها من عوالم حكايات هذا الزمان أهدافها؟ وكم يلزم من جيل عربي لتتحقق الرؤية المسيرية وينفض العربي عن نفسه غبار التبعية والانبطاح للآخر؟ .

5. الهوامش:

1. عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية غير موضوعية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000، ص516، 517.
2. ينظر المصدر نفسه، ص522
- 3- عبد الوهاب المسيري، في الخطاب والمصطلح الصهيوني، دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة، 2003، ص35
- 4- عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر؛ سيرة غير ذاتية غير موضوعية ص518، 519.
5. ينظر عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر؛ سيرة غير ذاتية غير موضوعية، ص 520 .
- *- صغنا هذا المصطلح من مصطلح الفن السائل، والذي عبر به المسيري عن فن وأدب ما بعد الحداثة.
- 6- جيهان فاروق فؤاد، رحابة الإنسانية المركبة في الرحلة الفكرية والسيرة الشعرية وقصص الأطفال، في مجموعة من الباحثين، في عالم عبد الوهاب المسيري؛ حوار نقدي حضاري، المجلد الثاني: دراسات وشهادات، تقديم محمد حسنين هيكل، تحرير أحمد عبد الحليم عطية، دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة، 2004، ص302، 303.
- 7- عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر؛ سيرة غير ذاتية غير موضوعية، ص 520.
- 8- ينظر، قصة ساندريلا وزينب هانم خاتون، من غصن إلى غصن ومن زهرة إلى زهرة، ، دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة، 1999.
- 9- يُنظر، سعيد الوكيل، التداخل النصي في قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري، في مجموعة باحثين، المسيري في عيون أصدقائه ونقاده، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق، 2007، ص609.
10. ينظر المرجع نفسه، ص 616.
- 11- عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر؛ سيرة غير ذاتية غير موضوعية، ص525، 526.
- 12- عبد الوهاب المسيري، معركة كبيرة صغيرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000. ص 10

المقاومة الثقافية عبر قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري "سلسلة حكايات هذا الزمان نموذجاً"

- 13- ينظر المصدر نفسه، ص11، 12
- 14- ينظر عبد الوهاب المسيري، ثلاث حكايات ثلاث نهايات من هذا الزمان دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة، 2004.
- 15- نقلا عن سعيد الوكيل، التداخل النصي في قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري، في مجموعة باحثين، المسيري في عيون أصدقائه ونقاده، ص.612
- 16- المرجع نفسه.612
- 17- جيهان فاروق، في عالم عبد الوهاب المسيري، المجلد2، ص306
- 18- عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر؛ سيرة غير ذاتية غير موضوعية ، ص525 .
- 19- المصدر نفسه، ص525
- 20- ينظر، عبد الوهاب المسيري، نور والذب الشهير بالمكانار، دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة، 2000.